# ضحكات على الجدران

## همدان دماج

الليل يغص بظلام لانهائي. وصوت المطر المنسكب في الخارج يبعث في النفس نشوة طفولة بعيدة، وهدير حنين موجع. امتلأ المكان برائحة المطر. وداعبت أنفاسه الهاجعة نسماتٌ باردة خففت من حرارة الغرفة المكتومة. خرجت من صدره العريض زفرة ما لبث أن كتمها بخوف. كان مواء القطة شاحباً، يخترق صوت قطرات المطر المنسكب بغزارة، ليصل إلى أذنيه صافياً وواضحاً وضوح القلق الذي انتابه والذي انتزع من جفنيه النوم تماماً. رهيبة صارت هذه اللحظات الآن، وصعبة للغاية... لحظات "التردد اللامنطقي والخوف من اللاشيء"، كما كان يصفها. لقد امتلأت حياته بهذه اللحظات العقيمة "التي ساقتني، ومستقبلي وآمالي العظيمة، إلى هذه الحجرة الحقيرة".

منذ أسبوع تقريباً كان على موعد يومي مع العذاب الليلي الذي لا يهدأ أبداً إلا عندما يطبق نوم مفزع على جفنيه المرهقين في وقت متأخر جداً. لقد لاحظ الجميع نحول جسده أكثر من أي وقت مضى، وبرزت حنجرته إلى الخارج أكثر فأكثر، حتى صارت تلفت أنظار الجميع وهم يتابعون حركتها الصاعدة والهابطة عندما كان يتكلم، وإن كانوا قد لاحظوا كذلك أنها صارت الآن نادرة. لم يكن هو نفسه يعي سبب تغيره المفاجئ، لكنه كان يدرك جيداً أن ثمة شيئاً ما يتحرك بداخله، بل إنه يكاد يهزه هزاً.

* * *

كان يعرف مواءها جيداً، تلك القطة السوداء المتسخة والمصابة بمجاعة مؤلمة. كاد أن يغمى عليه يوماً وهو يتابع جسدها الهزيل يقطع الشارع الفسيح، تحت عجلات سيارات الموكب الرئاسي المسرعة، لتداعب في الأخير خيوط حذائه اللامع الذي لمحته من على الرصيف المقابل من بين الجموع المحتشدة لتحية الضيوف

الكبار. وهذا الصباح رآها كعادتها بجانب عمود النور. وما إن رأته حتى قفزت مسرعة نحوه وظلت تلحق به وتدور بين قدميه بدلال حتى "كدت أن أسقط على وجهي". كانت صغيرة عندما رآها أول مرة، جسدها ناحل، وشعرها الأسود طويل ونظيف مقارنة بقطط الحارة. وكان أكثر ما لفت انتباهه هو ذلك الشريط الملون الذي يزين رقبتها الركيكة، والذي اختفى بعد ذلك بأيام. كان شغوفاً بالحيوانات منذ الصغر، لكنه لم يجرؤ، بل لم يفكر مطلقاً، أن يأخذها إلى منزله. كان يكتفي فقط بإطعامها من حينٍ إلى آخر، وبنهر أولاد الحارة عن ركلها بقسوة.

* * *

"لم أعد أحتمل هذا!". كان مواء القطة يزداد شحوباً وحدّة بازدياد زخات المطر الصيفي القاسي. أشعل سيجارة، وحدق نحو زوجته النائمة ورمى بمصفي النيكوتين بعيداً. لقد همّ أن يخرج، أن يلتقط هذه القطة ويدخلها البيت لكي يوقف هذا العذاب، هذا المواء القاتل؛ لكنه سرعان ما تراجع عن ذلك، مما أثار في

نفسه شعوراً بالحنق الشديد والشعور بالهزيمة والاحتقار لذاته؛ هذا الشعور الذي كان كامناً في داخله منذ زمن طويل. لقد كان يؤمن في قرارة نفسه بأنه ليس أكثر من حشرة صيفية وجرذ حقير مهزوز الشخصية فاقد الإرادة. كان يلوم نفسه دائماً ويعذبها. "الله يعينك يا مسكين"، هكذا تماماً قال له "الحاج مسعد"، صاحب البقالة، هذا الصباح وهو يشيعه بنظرات هازئة. حتى زوجته كانت تردد على مسامعه الكلمات نفسها. زوجته، هذا الجسد الرابض بجواره لم يكن سوى قدر فُرض عليه، لم يخترْ منه سوى اليوم "المشؤوم"، الذي حاول، رغم الضغوط الأسرية، أن يؤخره قدر المستطاع، لا رفضاً للعروس كما كان يعتقد الجميع، ولكن خوفاً من عجزه عن القيام بدوره كرجل في تلك الليلة الرهيبة. "لقد جعلت من نفسي برغوثاً اجتماعياً!"، حدث نفسه بأسى وأطبق يديه وتقلب في فراشه.

* * *

تذكر كيف كان الجميع يسخر منه، وكيف ظل صبيحة ذلك اليوم البعيد يتلقى، تحت شجرة "الفلفل" العملاقة، صفعات قائد الفصل دون أي اعتراض. وهذا الصباح أيضاً أخذ "المدير" قلمه الجديد ودسه في جيب قميصه بلا مبالاة دون أن يقول شيئاً. كانت نظرات المدير غير المكترث تحرك بعنف نهر الغيظ المكبوت بداخله. "آه كم كان بودي أن أنتزع قلمي من جيبه وأن أصرخ في وجهه بكل صوتي: إنه قلمي يا...!!".

كم تمنى اليوم أيضاً لو أنه صفع وجه "مبخوت"، الذي رفض بكل وقاحة أن يحضر له كوباً من الشاي مثل بقية الزملاء في المكتب! أو أن يقول: "لا" لـ"عبد الرزاق" الذي طلب منه كالعادة القيام بالعمل نيابةً عنه. لقد انقضى أسبوع تماماً وهو يحاول، دون جدوى، أن يلقي التحية على الموظفة الجديدة في المكتب المجاور. لقد كاد الدمع أن يقفز من عينيه عندما تذكر أنه لم يستطع حتى أن يمنع، عند عودته من العمل في سيارة الأجرة، الراكب المتطفل الذي بجواره من سلب آخر سيجارة لديه.

- "يا صرصور!".

بصق على نفسه وأغمض عينيه من جديد.

كان المواء المتصاعد يزداد شحوباً وتـوتراً بازديـاد زخـات المطـر. وبدأ صوت القطة يذوي شيئاً فشيئاً. كـان يتقلـب علـى فراشـه كالمسعور، تتأرجح في نفسه المتعبة الرغبة في النزول إلى الشـارع.

"لا يهم!"، صرخ فجأة.

- "عليَّ أن أنهي هذا بأي شكل كان!".

كان الدم قد احتقن في رأسه.

* * *

لم يسبق له من قبل أن رأى حارته خاليـة، نظيفـة وهادئـة، مثـل تلك اللحظة. وتذكر، وهو يذرع الرصيف المبتل، أنه لم يكن قد خرج في يوم من الأيام في مثل هذا الوقت. كـان المطـر يتسـاقط بهدوء، وكانت البيوت هامدة؛ إنها الثالثة صباحاً. وتأمـل قلـيلاً، وهو يستنشق الهواء البـارد، قطـرات المطـر الـتي تلمـع بمحـاذاة المصباح الكهربائي الوحيد ثـم تهـوي علـى أسـفلت الشـارع لتنضـم في الأخـير إلى الجـدول المـائي المحـاذي للرصـيف. كـان

احساس مفعم بالسعادة قد غمره تماماً. وتحـرك بخطـوات واسـعة نحو ما تبقى من ذلك الصوت، ورمى بجسده تحت هيكل إحـدى السيارات الواقفـة، وأمسـك بلطـف الجسـد المـرتعش والمبتـل ووضعه بحنوّ على صدره الذي بدا ينبض بقـوة. ودون إرادة منـه خرجت من صدره المضغوط ضحكة عالية رددت صداها جـدران ومساكن الحارة. انبعثت أضواء من بعض النوافذ، وازدادت شيئاً فشيئاً، مرتسمة علـى اسـفلت الشـارع المبتـل، وتـدلت رؤوس كثيرة من النوافذ لكنها سرعان ما عـادت إلى الـداخل. وبـدأت الأنـوار المرتسـمة علـى الشـارع تختفـي رويـداً رويـداً، تاركـة ضحكاته المدوية تجلجل في الأرجاء، والتي لاتزال جـدران الحـارة تردد صداها حتى اليوم.

**صيف 1997**